الفصل التاسع

النزاع بين اليونان وفارس ـ مجد أثينا

الحروب الفارسية :

تمثل الفصول الثمانية السابقة عدة قرون، بل عدة آلاف من السنين وعدداً من البلاد، أو بالأحرى العالم القديم بأسره. وأما بقية هذا المجلد التي تكون ثلثيه تقريباً فإنها تبحث في قرنين فقط، وسيكون مدار الكلام حول منطقة واحدة صغيرة هي أتيكا، بل سيكون بالأحرى حول المدينة الرئيسية فيها وهي أثينا.

كانت أثينا معروفة قبل القرن السادس بمدة طويلة وقد سبقت الإشارة إليها، ومع ذلك كانت من آخر ممالك المدن التي ظهرت على مسرح تاريخ اليونان.

وقد يمكن أن يعتبرها أناس كالإسبرطيين مثلا حديثة النعمة، في حين أنها احتفظت بالنماذج والتقاليد الدورية على أشد ما تكون صلابة[1]. ومهما يكن من أمر فإن أثينا نشأت بسرعة وأصبحت في خلال قرن ونيف بارزة وقوية لدرجة تمكنت معها أن تتزعم العالم الهليني في نزاعه مع الفرس الذي كان نزاع حياة أو موت. وكانت أثينا بعد الفوز على الفرس الدولة الرئيسية في ذلك العالم الهليني لمدة نصف قرن. وأهم من ذلك بكثير أنها ظلت تعتبر منذ ذلك العهد أحسن رمز للحضارة الهلينية. وعندما نفكر في تلك الحضارة فإننا نفكر في معظم الأحيان في أثينا. ولفظتا أثينا واليونان تكادان تستعملان الواحدة للدلالة على الأخرى في ذكرياتنا المفعمة بعرفان الجميل.

وتحتاج هذه الأمور إلى بعض الإيضاح. ففي نهاية القرن السادس كانت إمبراطورية الفرس الأخمينيين[2] تسيطر على أهم قسم في العالم القديم، وكانت تضم غربي آسية كلها (عدا شبه الجزيرة العربية)، بل تضم مصر أيضاً[3].

وكانت التجارة الفارسية منظمة ومتشعبة فى جهات مختلفة . وكانت المنافسة قوية بينها وبين المستعمرات اليونانية خاصة فى جهات البحر الأسود والمضايق المؤدية إليه وفى شرق البحر المتوسط . وقد تمكن الفرس من الجمع بين تجارة القوافل الواسعة فى آسية وشمالى أفريقيا وبين تجارة الفينيقيين البحرية . وكان الفينيقيون بطبيعة الحال حلفاء الفرس فى منافستهم لليونان وفى كرههم المتزايد لها . وامتدت مستعمراتهم فى هذا العصر من طرف البحر المتوسط إلى طرفه الآخر ، وبفضلها شملت التجارة الفارسية هذا البحر بأسره ، كما يشهد بذلك اكتشاف النقود الفارسية الذهبية (المعروفة باسم دارية darics نسبة إلى داريوس) فى أماكن مختلفة حوله . وقد كانت المستعمرات اليونانية كثيرة ومزدهرة حتى ذلك الزمن غير أنها كانت مطوقة ومحاطة فى كل مكان بمراكز فارسية أو فينيقية. وكان لهذا الوضع خطره ، ولكن ربما بدرجة غير كبيرة بالنسبة لليونانيين المعاصرين ، لأنه لم يكن فى استطاعتهم تقدير هذه الخطوة كما نفعل نحن عندما ننظر بإمعان فى الخرائط الممتازة التى وضعت بفضل جهود البحاثة المتلاحقة(٤) .

وكان الضغط شديداً على الأخص فى المستعمرات الأيونية التى كان الفرس يسيطرون على البلاد الواقعة وراءها ، حيث كان لابد من تكرر وقوع الحوادث وقيام الثورات وما يتبعها من أعمال القمع . وقد بدأت الثورة الأيونية عام ٤٩٩ ، وفى السنة التالية احتل اليونان بصورة مفاجئة مدينة ساردس (عاصمة مقاطعة ليديا) وخربوها . ولكنهم عوقبوا بشدة فى طريق عودتهم قرب أنسرس . وامتدت الثورة إلى مستعمرات أخرى فى قبرص وآسية وكان مركزها الرئيسى مدينة ميليتس المشهورة التى احتلها الفرس « فى السنة السادسة للثورة » (٤٩٤) ، وهدموها عن آخرها . واجتاح الفرس فى ٤٩٣ جزر كيوس وتنيدوس Tenedos ولسبوس وأصبح الوضع خطراً . وكان ثيمستوكليس Themistocles (حوالى ٥١٤ — ٤٦٠) من أول الساسة الأثينيين الذين أدركوا خطورة الحال ، فأقنع مواطنيه بأن يستعدوا للدفاع وذلك ببناء أسطول دائم وتأسيس دار للصناعة

البحرية فى بيرايوس ميناء أثينا . ولا داعى لرواية بقية القصة فهى معقدة حتى إن تلخيصاً واضحاً لها قد يستوعب مجالا كبيراً . ويكفى أن نذكر أعمال البطولة فى ماراثون حيث كسر جيش داريوس فى عام ٤٩٠[٥] والدفاع المجيد الذى قامت به مؤخرة جيش اليونان فى مضيق ترموبيلاى Thermopylae فى ٤٨٠ (حيث قضى ليونيداس ورجاله الإسبرطيون الثلاثمائة) وموقعة سلاميس البحرية فى السنة نفسها حيث كسر الأسطول اليونانى الأسطول الفارسى شر كسرة ، وكان اكسرسيس ملك الفرس يشاهد مأساة الانكسار من العرش الذى نصبوه له على أحد تلال ساحل أتيكا . وانتقم الفرس فى الربيع التالى بغزو أتيكا، ونهبوا أثينا وأحرقوا الأكروبول بما فيه من معبد البارثينون القديم . غير أنهم كسروا ثانية فى الصيف فى موقعة بلاتيا (فى مقاطعة بيوشيا قرب حدود أتيكا) وفى الوقت نفسه تقريباً (أغسطس ٤٧٩) كسر أسطول اليونان المتحالفين أسطولا فارسيا آخر قرب ميكال (على الساحل الأيونى مقابل جزيرة ساموس) . وحينذاك اطمأنت اليونان على استقلالها .

ولا نغلو مطلقاً فى أهمية هذا النزاع بين آسية وأوربا . فهو من أعظم المنازعات فى تاريخ العالم ومن أخطرها من حيث ما ترتب عليه من نتائج . وقد تقرر المستقبل بانتصار اليونان النهائى : (وكان يمكن أن يكون المستقبل مختلفاً تمام الاختلاف لو أن الفوز كتب للفرس ، على أنه ليس من المستطاع بل ليس من المفيد أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث) . ومهما يكن فإنه من الخطأ أن نسمى هذا النزاع نزاعاً بين آسية وأوربا أو بين الشرق والغرب وإن كان فى ذلك بعض الصحة فى الظاهر . فكثيرون من اليونان كانوا يعيشون فى آسية أو فى مصر لعدة قرون خلت . ومن جهة أخرى فإن الفينيقيين وهم حلفاء الفرس البحريون كانوا منتشرين فى بلاد البحر المتوسط وكان فى إمكانهم أن يهددوا اليونان من جهة الغرب . كذلك لم يكن النزاع نزاعاً بين الآريين والساميين لأن الفرس كانوا آريين كاليونان ، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين . والإمبراطورية الأخمينية كانت مجموعة من جميع أجناس غربى

آسية وأممها . وقد امتزجت بصورة متوالية أثناء آلاف السنين . ولغة الإمبراطورية الرئيسية كانت الآرامية وهى لغة سامية . ولذلك فإنه من الأصح أن نعتبر ذلك النزاع نزاعاً بين الحكم المطلق الآسيوى والديموقراطية اليونانية . وقد فازت الديموقراطية وتأيدت . ومع أن هذه المحاولة الأولى لم يكتب لها البقاء طويلا فإنها ظلت مثلا لم ينسه العالم أبداً .

ولم تدافع أمم اليونان كلها عن حريتها ، وإنما قامت بعضها بذلك وفى مقدمتها المستعمرات الأيونية وأثينا وإسبرطة (لا ننسى أن شهداء ترموبيلاى كانوا إسبرطيين) . وبرزت أثينا زعيمة لليونان . فكيف نفسر ذلك ؟ هل كان الأثينيون جنساً خاصاً ومتميزاً عن غيره من اليونانيين ؟ لقد كان معظم الأثينيين أول الأمر من السكان الأصليين ، أو كانوا يبدون كذلك ، وكانوا يضعون شارة ذهبية فى شعرهم إشعاراً بهذا[٦] . ومع ذلك فإن موقع أتيكا فى الطرف الشرقى لشبه جزيرة اليونان كان ملائماً كل الملاءمة لمختلف الأعمال التجارية ، وخاصة مع مستعمرات أيونيا وجزر بحر إيجة . وقد تدفق الأيونيون على أثينا وتأثرت الحضارة الأثينية كثيراً بالنماذج الأيونية . وأرى أن هذا هو التفسير الرئيسى لتفوق أثينا — أى تطعيم العنصر الأتيكى القديم بذكاء الأيونيين ومعارفهم المتنوعة (وفى التاريخ أمثلة كثيرة لهذا التطعيم وثماره العظيمة) . زد على ذلك أن أتيكا كانت تجذب إليها جماعات أخرى من الأجانب . فكانوا يأتون من أماكن وأجناس مختلفة وبالتدريج يندمجون فيها . ولغة الأثينيين نفسها تظهر صفتهم العالمية[٧] . وهذه اللغة بدورها كانت وسيلة أخرى للوحدة الثقافية . وقد اعترف بمكانة أثينا القومية قبل نهاية القرن السادس بالرغم من أن سائر المدن كانت تفوقها قوة . وارتفعت هذه المكانة كثيراً بعد موقعة سلاميس . وأصبحت أثينا المدينة الرئيسية كما أن إلهتها بالاس أثينا Pallas Athene أضحت أحسن رمز للهلينية .

وصارت أثينا المركز السياسى والتجارى والثقافى الرئيسى ، وإن لم تكن بوجه من الوجوه المركز الوحيد . فقد ازدهرت مراكز أخرى فى طيبة وكورنثة

وسيكيون Sicyon وميجارة Megara وحتى فى مقدونية وأيونيا وبرقة Cyrenaica وإيطاليا وصقلية . وكان العالم اليونانى كثير الاتساع والتنوع ، ومع الزمن أنجبت كل زاوية من زواياه رجالها العظام . ومع ذلك فإن عدداً متزايداً من هؤلاء الرجال كانوا مضطرين ، إذا لم يكونوا مولودين فى أثينا ، أن يأتوا إليها لإتمام تحصيلهم، أو لبلوغ هدفهم وممارسة نفوذهم وللحصول على الاعتراف النهائى بجدارتهم .

سلم نسبى يدوم خمسين سنة

بلغت سيادة أثينا الأوج فى فترة السنين الخمسين التى انقضت بين موقعة سلاميس والحروب البيلوبونيزية وقويت هذه السيادة وبدت كأنها متوطدة إلى الأبد . وكانت أثينا على رأس العصبة الأيونيه التى تحولت بالتدريج إلى الإمبراطورية الأثينية البحرية وكانت الأعياد الأثينية والاتيكية أكثر الأعياد شهرة وشيوعاً فى بلاد اليونان . وظلت الحضارة الأثينية بالرغم من تفوقها القومى وصفتها العالمية أصيلة غير متكلفة . وكان يحركها الفخر بالحاضر والإيمان بالمستقبل والوطنية الساذجة وكثير من الغرور يلطفه حب المناقشة ، كما يحدث عادة فى أوقات السلم والرخاء . وقد كانت تلك السنون الخمسون عصر أثينا الذهبى ، ويمكن أن نقارنها بالعصر الإليزابيثى فى إنجلترا الذى كان يعادلها طولا (مدته ٤٥ سنة من ١٥٥٨ — ١٦٠٣) وحماسة . وكانت تسيطر على السنوات الثلاثين الأخيرة من هذه الفترة شخصية سياسى كبير هو بركليس (٤٩٩ — ٤٢٩) ، ولذلك فإنها أحياناً تسمى عصر بركليس . على أنه من الأنسب ألا تدعى كذلك . لأن عصر بركليس لم يكن كله ذهبياً ، وإن كان أكثر الأقسام فخامة وربما كان أكثرها إبداعاً ، إلا أن الذهب الحقيقى كان قد بدأ يفقد لمعانه ، وأخذ التكلف يحل محل الفطرة . والشك محل الغرور الساذج ، والغيوم الدكناء تتجمع فى الأفق .

والأمر السياسى البارز هو تأسيس العصبة الأيونية (البحرية) والسيادة الأثينية . وقد حكمت أثينا العالم مدة من الزمن وسادت الحضارة الأثينية

سائر الحضارات اليونانية . وكانت القوة البحرية هى القوة الوحيدة التى فى إمكانها توحيد الدول الهلينية الواقعة بين البر والبحر ، وكان استخدامها مشجعاً كبيراً للتبادل الدولى سواء أكان تبادلا مادياً أم فكرياً . وكان مركز العصبة الأيونية وخزانتها أول الأمر فى جزيرة ديلوس (أصغر مجموعة جزر السيكلاديس فى بحر إيجة) وهى أقدس مكان لعبادة الإله أبوللو . ولقدسيتها هذه شأن فى حمايتها ، حتى إن الملاحين الفرس فى طريقهم إلى سلاميس لم يجرأوا على نهبها . وعندما عظمت سيادة أثينا نقلت إليها خزانة العصبة من ديلوس ، ولكن من جهة أخرى اتخذت جميع الاحتياطات لزيادة قدسية ذلك المكان . فجميع بقايا الإنسان والحيوان مثلا كانت تطرح خارجها . كما بذلت الجهود لمنع تدنيسها بوقوع الولادات والوفيات . على أنه من المؤسف أن نضطر للقول بأن قدسية ديلوس دنست فى العصور التالية بشكل واضح . فالأعياد التى كانت تقام تكريماً لأبوللو والألعاب الديلوسية كانت تجتذب أفواجاً من الناس . وبين هذه الألعاب والأعياد كان يأتى الوفد المقدس theoria الذى كانت ترسله أثينا فى كل عام . كما أن عدداً كبيراً من الحجاج كانوا يتوافدون من مختلف أطراف العالم اليونانى . وكانت ديلوس ، كأى مكان مقدس آخر ، سوقاً عظيمة — وليس فى ذلك من بأس . غير أنها أصبحت سوقاً للنخاسة بل أعظم سوق من نوعه فى ذلك العصر . ومن هنا الغرابة فى أن تختلط الأعياد الدينية بتجارة الرقيق ! وعوقبت ديلوس بشدة على هذا الانحطاط المريع أثناء حرب ميثريداتيس ضد روما ، حين استولى أحد قواد ميثريداتيس(٨) على جزيرة ديلوس عام ٨٤ ق.م . وذبح رجالها ولم يبق إلا على النساء والأطفال يعيشون فى العبودية .

لنلق نظرة سريعة على قسم آخر من العالم اليونانى كان يساعد أيضاً فى تحقيق وحدة اليونان ، وهو دلفى فى مقاطعة فوكيس Phocis . وقد أسس هذا المعبد فى موقع يثير الإعجاب والخوف على منحدر جبل برناسوس ، وكان يعتقد أنه سرة الأرض omphalos أو وسطها ، وأن الإله زيوس قرر هذا الموقع

بإطلاق نسرين أحدهما فى طرف العالم الغربى والآخر فى طرفه الشرقى ثم طارا بسرعة متساوية فالتقيا فى دلفى . تلك قصة جميلة وإن تكن بدائية نوعاً ما . وقد أقيمت قطعة من الرخام – كحجر سرة – فى وسط المعبد(٩) . وهذا المعبد قديم جداً ، وبعد أن احترق عام ٥٤٨ أعيد بناؤه فى صورة أفخم بتبرعات جمعت من جميع مناطق اليونان وحتى فى المستعمرات اليونانية فى مصر . وكانت تقام الألعاب البيثية Pythian * تكريماً لأبوللو فى دلفى ، غير أن أهم ما اشتهر به هذا المكان هو الفجوة أو الشق chasma الذى كانت تنبعث منه أبخرة ذات رائحة قوية من العالم الأسفل . وكانت تجلس نبية تدعى بيثيا Pythia(١٠) على شىء مثلث القوائم (سيبة) فوق ذلك الشق ، وتقع فى غيبوبة ، ثم تصدر عنها تكهنات كانت يتلقاها كل شخص تقريباً باحترام غريب سواء كان متعلماً أم لا . وكان وحى دلفى من العناصر التى ساعدت على تطور الثقافة اليونانية(١١) . وفى الأعياد الدينية كانت تلقى الخطب التى تتخذ فى بعض الأحيان صفة خطب سياسية ومديح لزعماء اليونان(١٢) . وكانت سلطة أثينا مبنية إلى حد كبير على تبرعات حلفائها المالية ، ولكنها أيضاً كانت مبنية إلى حد عظيم وإن يكن من الصعب قياسه على استخدام جميع الوسائل التى قدمتها أماكن مثل ديلوس ودلفى لإقناع الناس وتقوية الوحدة القومية .

وقد كان فى الإمكان أن تدوم سيادة أثينا مدة طويلة لولا حسد منافساتها اللاهب وخاصة إسبرطة . وكان يتضح أكثر فأكثر كل سنة أن وحدة اليونان مصطنعة . دامت بدوام الخطر الفارسى ، وبالرغم من الأعياد والألعاب فإنها لم تكن لتبقى طويلا .فاليونان اتحدوا جميعاً ضد البرابرة أو غير اليونان ، وعندما فقد البرابرة أملهم وزال خطرهم ، حلت الريبة والعداء محل الوحدة . وأدى التوتر المتزايد إلى الحروب الأهلية (٤٣١ – ٤٠٤) التى سنأتى على ذكرها .

---

* كان الاسم القديم للمكان الذى تقع فيه مدينة دلفى « بيثو Pytho » كما أن دلفى نفسها عرفت بهذا الاسم ولذلك كان يسمى أبوللو « البيثى Pythian » والألعاب تسمى البيثية (المترجم) .

إن مهمتنا الرئيسية فى هذا الفصل هى إيضاح جمال العصر الذهبى الأثينى وسموه (٤٨٠ – ٤٣١) . وستخصص الفصول التالية للنتائج الفلسفية والعلمية . أما فى هذا الفصل فإننا سنتحدث بإيجاز عن الإبداع الأدبى والفنى الذى يمتاز بوضوحه ويساعد أكثر من أى شيء آخر على تقدير عظمة أثينا .

الشعر الغنائى

إن أقدم مظهر لعظمة أثينا يمكن مشاهدته فى الشعراء الغنائيين الذين ظهروا قبل الحروب الفارسية ، وكانوا أول من عبر عن مطامح هيلاس بعد عصر هوميروس وهزيود . وأفضل أولئك الشعراء كانوا فى الحقيقة لسان حال الجمهور ومفسرى إرادته ومواقفه . وكانت الألعاب الوطنية والأعياد الدينية تعطيهم فرصة ممتازة للتغنى بأفراح الشعب اليونانى ومفاخره ، والتحدث عما يجول فى خاطر الناس ، والتعبير عن أنقى الأفكار بكلمات مختارة متناسقة لدرجة أنها كانت تتناقلها الألسن وتدخرها القلوب وتعاد بصورة دائمة . إن تلك الكلمات التى كانت تطير من فم إلى فم كانت أكثر تأثيراً من العناوين الفخمة المبتذلة فى صحفنا اليوم .

ولم يكن الشعر بعد منفصلا عن الموسيقى ، فكان الشاعر مؤلفاً موسيقياً فى الوقت نفسه بحيث يتم التأليف الشعرى فى دماغه مع التأليف الموسيقى ويثير أحدهما الآخر . وكان النظم يرافق التلحين ، وتلاوة الشاعر أو ترتيله يرافقهما عزف الشاعر على القيثارة أو عزف شخص آخر على الناى .

وكانت الأشعار الغنائية أنواعاً كثيرة : فمنها الترانيم الدينية والأغانى التى ترافق المواكب والرقصات الطقسية ، والأناشيد التى تحتفل بالفائزين فى الألعاب الوطنية ، والأشعار التى تتلى فى نهاية مأدبة لشكر المضيف ، ومدائح عظماء الرجال . والمراثى ، والمقاطع الشعرية ذات المغزى ، والأبيات التى تكتب على الأضرحة ، وندع جانباً القطع التى لها لون شخصى أكثر وتعبر عن عواطف الشاعر الخاصة . ولم يكن الشاعر ليشرح الوقائع وإن أشار إليها أحياناً ،

وإنما كان غرضه التعبير عن شعور إخوانه . وقد فعل ذلك بصورة جيدة ، وفى بعض الأحيان كان عمله ممتازاً .

والأمثلة البارزة لهؤلاء الشعراء سيمونيديس Simonides (٥٥٦ — ٤٦٧) من جزيرة خيوس (إحدى جزر السيكلاديز) . وابن أخيه باخيليديس Pacchylides وبوجه خاص الشاعر الثيبي بندار Pindar (حوالى ٥١٨ — ٤٣٨) . ولنلاحظ أن هؤلاء الثلاثة وإن كانوا ولدوا فى القرن السادس إلا أنهم عاشوا فى جزء كبير من القرن الخامس الذى نتحدث عنه .

ولعل القارئ صدمته إشارتنا إلى علم الغيب والتكهن . وقد يعجب أن يسمح هؤلاء اليونان المشهورون بحكمتهم لأنفسهم بأن يخدعهم قارئو الغيب والنساء المصابات بالهستيريا . ومع ذلك كان اليونان يسترشدون من جهة أخرى بالشعراء الذين كانوا يعدون أصواتاً إلهية من نوع آخر . وفى الظلام الذى أحاط بهم كانت الكلمات العاطفية تهز نفوسهم . وقد تبدو إلهية إما لظروف الخاصة التى ترافق التلفظ بها (كما فى الشق الموجود فى دلفى) أو لإيقاعها وجمالها الخارق . فكبار الشعراء فى مقدمة قراء الغيب وليسوا بأقلهم غموضاً .

نشأ سيمونيديس فى أثينا ، وتنقل فى تساليا ومناطق أخرى من بلاد اليونان ، حتى إنه وصل إلى بلاد اليونان العظمى (Magna Graecia) * وبلغ من شهرته أن الملك هيرون[١٣] دعاه إلى صقلية وبالغ فى إكرامه . وإلى القارئ مقطوعة قصيرة لإعطاء فكرة (هى حتما غير تامة) عن شعره وهى مقتطفة من قصيدة عن ترموبيلاى :

أولئك الذين قتلوا فى ترموبيلاى
لقد كان حتفهم مجيداً وحظهم جميلا
إن قبرهم مذبح : والرجال يمتنعون عن البكاء
ليكرموهم ويمتدحوهم ، لا ليندبوا حظهم
إن هذا الضريح سوف لا تبليه الكآبة

---

* يطلق هذا الاسم على المستعمرات اليونانية فى صقلية وجنوبى إيطاليا (المترجم) .

ولا الزمن الذى يزيل كل شىء . هذا هو حتمهم
وفى ضريحهم وضع المجد الذى ولد فى اليونان
إن هذا ما يشهد به ليونيداس الإسبرطى
الذى يعيش فى قصته إلى الأبد إكليل من الفضيلة[١٤]

وذكر فى قطعة حفظها لنا پلوتارك أن سيمونيديس كان يعتبر أن مائة سنة وحتى ألف سنة ليست سوى نقطة (Stigme) بين خطين لا متناهيين هما الماضى والمستقبل .

كان باخيليديس ابن أخى سيمونيديس أصغر منه بنحو أربعين سنة ، وقد حذا حذوه، فكان يتنقل فى مختلف بلاد اليونان ، ويكتب الأناشيد وغيرها من الأشعار الغنائية للشعب الذى كان يقابله بالترحاب . وقضى بعض الوقت فى الپيلوپونيز وفى بلاط هييرون . ولم نكن حتى نهاية القرن الأخير نعلم إلا القليل جداً من شعره ، ثم اكتشف له منذ ذلك الحين تسع عشرة قصيدة فى ملف بردى . وبدلا من مائة بيت أصبح لدينا الآن من شعره نحو ١٤٠٠ ، وصار من الممكن تقدير نبوغه . وهذا مثال على تقدم المعرفة بفضل جهود العلماء فى العصر الحديث . وكان يظن أن ما عرفناه عن تاريخ الأدب اليونانى القديم تام ، فى حين أن معلوماتنا حتى عام ١٨٩٧ عن هذا الشاعر الكبير كانت ناقصة جداً[١٥] .

أما بندار (٥١٨ ــ ٤٣٨) الذى يأتى بين شاعرى خيوس[١٦] فإنه فاقهما كليهما وفاق جميع الآخرين . ويعتقد كوينتليان (الجزء الأول ــ الفصل الثانى) أنه أعظم الشعراء الغنائيين التسعة[١٧] . وظل حتى اليوم رمز الشعر الغنائى فى العصر الذهبى . ولم يخترع بندار شكلا جديداً من الشعر ولكنه حسن ما صنعه الآخرون قبله ، وأنتج إنتاجاً غزيراً ، فكانت عبقريته ممتازة فى طاقتها وثمارها . نشأ بجوار طيبة ، وتربى فى أثينا (وفى هذا ما يثبت أنها كانت مركزاً أدبياً منذ أول القرن) . وفى موقعة ماراثون كان فى نحو الثلاثين من عمره ، وبذا تلاقت سنو نضجه مع روح التسامى القومى . الذى استطاع التعبير

عنه بأوفى بيان . وكانت ألفاظه فى آن واحد براقة وفخمة، سريعة وصحيحة . ولقد تنقل أكثر من منافسيه ، فإننا لا نجده فى بلدة طيبة وأثينا وسائر مدن اليونان الأصلية فحسب، وإنما نجده أيضاً فى مقدونيا وبرقة وصقلية .

هؤلاء الشعراء الغنائيون يمثلون ما يشبه مقدمة هيلينية جامعة للحضارة الأثينية . وقد دفعهم عدم استقرارهم إلى التنقل بين جميع البلاد اليونانية . ومع أنهم كانوا مدينين لأثينا بالشيء الكثير فإنهم لم يعتبروا أنفسهم أثينيين بل هيلينيين . وكتبوا وأنشدوا الأشعار للبلاط والجماعات التى كانت ترحب بهم . وذكر عن سيمونيديس أنه كان أول من رضى بتناول المال لقاء عمله . ويصعب فهم عبارة كهذه ، لأننا نعلم أن المنشدين الذين كانوا يتجولون فى طول البلاد وعرضها كانوا يكافأون على أتعابهم وتقام لهم الحفلات من قبل مضيفيهم . وقد تكون تلك الإشارة إلى الدفع النقدى بدلا من الدفع العينى ، وهى بهذا لا تدل إلا على تبدل فى الأحوال الاقتصادية . وربما كان سيمونيديس من أول الذين دفعت لهم نقود ، لأن كمية النقد المتداولة كانت أكثر فى أيامه ، ولأن الناس كانوا أكثر استعداداً لاستعمالها وكانوا يؤثرون هذا على أن يقايضوا مواهبهم ببضائع وحاجات أخرى .

كان سيمونيديس وباخيليديس من خيوس وبندار من طيبة ، وجميعهم تنقلوا فى البلاد التى تتكلم باليونانية . وتوفى سيمونيديس فى سيراكوز . وبندار فى آرجوس (فى شبة جزيرة البيلوبونيز) . وأشهر أغانى بندار تتعلق بحوادث الفوز فى دلفى . ولذلك فإن مجده بدأ فيها . وتردد صداه مع سائر الذكريات المتصلة بها فى جميع بلاد اليونان . وأشعاره الأخررى تبدو دلفية بما اتسمت به من عظمة قاتمة .

وفى نهاية الأغنية التى نظمها بندار باسم أحد صغار الرياضيين الذى فاز فى مصارعة عام ٤٤٦ ، واسمه ارستومينيس من إيجنا قال :

قصيرة فترة الزمن التى تنمو فيها سعادة المرء الفانى

وحتى فى ذلك تسقط إلى الحضيض إذا ما أصابها القضاء المعاكس

خلق يوم واحد ، فأى شيء هو هذا الإنسان ؟ وأى شيء ليس هو ؟
ليس شيئاً آخر سوى حلم الخيال
ولكن عندما يأتى بريق من الشمس هدية من السماء
فإن نورا مشرقاً يستقر على الناس وتستقر معه حياة سعيدة(١٨)

أصبحت شهرة بندار عظيمة أثناء حياته . بفضل عبقريته واتصاله بدلفى « سرة » الأرض ، واعتبر شاعراً كلاسيكياً بعد موته بفترة قصيرة جداً .

زاد شهرة هؤلاء الشعراء فى بلاد اليونان أجمع أنهم لم يكتبوا بلهجتهم الخاصة ، وإنما بلغة مصطنعة نوعاً . وهى إحدى اللهجات الدورية الأدبية التى اقتصر استعمالها عليهم وحدهم تقريباً(١٩) . ويرمزون بذلك إلى وحدة الهلينيين الطبيعية التى أوجدتها تقاليدهم الهومرية وأسرارهم وألعابهم القومية واجتماعاتهم ووفودهم المقدسة ونظرياتهم وحججهم — وهذه الوحدة أقدم من وحدة العصبة الأيونية السياسية أو وحدة الإمبرطورية الأثينية ، وأرفع منها .

الفنون :

كان نشوء الشعر الغنائى إلى حد بعيد مستقلا عن الازدهار الاقتصادى وعن الإمبراطورية لأنه لم يستدع نفقات كبرى . واشترك الشعراء فى الأعياد العامة والخاصة وكانت النفقة الإضافية الوحيدة التى اقتضاها حضورهم هى مصروفهم الخاص والعطايا الملكية التى استحقوها (بدون أن يحصلوا عليها أحياناً) . ومن المحقق أنه مما كان يثير عبقريتهم إلى حدما هو الحماسة العامة . وإننا لنعبر عن هذا الشيء نفسه عندما نقول إنهم كانوا لسان حال الشعب ، ولذلك كان لابد من أن يرتفع إنشادهم ويزداد جمالا فى أيام الظفر والتوسع . وعلى عكس ذلك كان بناء المعابد وسائر الأبنية العامة يتكلف كثيراً . وكان الحجاج هم الذين يدفعون المبالغ اللازمة لبناء المعابد مثل ديلوس ودلفى واليوسيس Eleusis ، أو كانت تجمع من جماعات المؤمنين فى مختلف الأماكن . وعندما أصبحت أثينا مركز العصبة الأيونية ، كانت تتلقى التبرعات من حلفائها ، هذا إلى أن مواردها المالية ازدادت بفضل تجارتها . وفوق ذلك

obeikandi.com

كانت مناجم الفضة فى لوريون Laurion (فى جنوب أتيكا) ملكاً للدولة، يستثمرها الرأسماليون عن طريق الالتزام ويشتغل فيها العبيد. وقد استعملت الفضة المستخرجة منها فى أول الأمر (حسب نصيحة ثيمستوكليس) لتقوية الأسطول، ثم خصص فيما بعد قسم هام منها لإعادة بناء أثينا وزخرفتها بالمبانى المجيدة.

وقامت الإنشاءات الفنية البارزة بفضل بركليس ومساعده فيدياس (المولود فى عام ماراثون ٤٩٠، والمتوفى فى السجن فى عام ٤٣٢). ولم يكن فيدياس أعظم نحات فى عصره (ومن أعظم النحاتين فى جميع العصور فحسب)، بل كان مكلفاً أيضاً من قبل بركليس بإدارة جميع مشروعاته الفنية. وقد فقدت أهم أعماله فى النحت، وهى التماثيل الضخمة للإلهة أثينا فى مدينة أثينا وللإله زيوس فى أولمبيا المصنوعة من الذهب والعاج. ولكن جانباً كبيراً من زخارف المبانى الرئيسية على الأكروبول قد بقى. وخاصة قسم من المدخل وهيكل البارثينون. وفى رأى أكثر الناس أن مجد اليونان هو مجد أثينا فى مدة قرنين، ومجد أثينا يرمز إليه هيكل البارثينون الجديد الذى تم انشاؤه بين ٤٤٧ و ٤٣٤. ويقترن ذكر ثلاثة من الرجال العظام فى فخامة ذلك البناء وهم: بركليس الدماغ المفكر، وإكتينوس Ictinos البناء، وفيدياس النحات. ولم يخطىء الناس فى نظرهم إلى هذا البناء. فهو بحق أحسن رمز للحضارة اليونانية. وهو كغيره من بدائع الفن (بعكس بدائع العلم والأدب) يمكن تقديره بداهة من قبل أى شخص جدير بالتقدير. وأجمل تعبير أدبى عن عظمة البارثينون قدمه لنا أرنست رينان Renan فى مقطوعته «صلاة على الأكروبول حين وصلت إلى إدراك جماله التام»، وكلماته نفسها هى من أشهر قطع النثر الفرنسى [٢٠].

تطور النحت اليونانى إلى حد بعيد فى القرن السادس، وترجع بعض التماثيل التى نالت أكبر قسط من الإعجاب إلى ذلك العهد. وفى النصف الأول من القرن الخامس عرف اجيلاداس الأرجوسى Ageladas of Argos الذى فقدت أعماله الفنية. وقد علم ثلاثة طلاب مشهورين هم فيدياس وميرون Myron وبوليكليتوس Polycleitos، ويمثل هؤلاء الثلاثة نضج النحت اليونانى.

ويفضل كثيرون اليوم إنتاج القرن السابق الذى كان أقل نضجاً وأكثر سذاجة، إلا أنا نستطيع أن نقبل حكم اليونانيين أنفسهم الذين أجمعوا على إطراء أعمال فيدياس وبندار .

وفى العصر الذى عاش فيه أجيلاداس تقريباً ازدهر الرسام بوليجينوتوس Polygnotos . وقد ولد فى تاسوس (وهى جزيرة جنوبى ساحل تراقية) ، ثم أتى إلى أثينا منذ حداثته . وكان النحاتون الثلاثة العظام يعيشون أيضاً فى أثينا إلا عندما كانت مهماتهم تجبرهم على الإقامة المؤقتة فى أماكن أخرى . وكان يمكن مشاهدة أشهر رسوم بوليجنوتوس الجدارية فى رواق lesche[٢١] فى دلفى ، وتمثل نهب طروادة ، ويوليسيس Ulysses فى العالم الأسفل . وبقدر ما يمكننا الحكم عليها من أوصافها القديمة كانت ملونة تلويناً بسيطاً ، بدون أى تأثير للنور والظل وبدون مناظر فى أرضيتها . ومع ذلك كانت عظيمة الأثر فى صرامتها وهيبتها . لقد ضاعت هذه الرسوم . ولكن لدينا فكرة تقريبية عن مقدرة معاصرى بوليجنوتوس الفنية فى الرسم ، وذلك من الرسوم الكثيرة المحفوظة على الأوانى اليونانية (وتتميز الأوانى الأتيكية فى القرن الخامس بما سمى أسلوب الأشكال الحمراء) .

المأساة :

لم نتكلم بعد عن أبرز مظهر للحياة الأثينية فى القرن الخامس — طيلة ذلك القرن وبصورة متزايدة — وهو المسرحية . فإنها كانت شيئاً جديداً ، وإن كانت استمراراً وتوسعاً لتقليد قديم . وذلك لأن الشعب كان يحب الرقص والغناء ، كما يحب الاستماع لتلاوة الأشعار . ويعود هذا الميل إلى العصر الهومرى ، والشعراء الغنائيون فى القرنين السادس والخامس أعطوه شكلا جديداً . ومن جهة أخرى أدخلت الأسرار الدينية وسائر الاحتمالات التمثيل المسرحى . وبحسب الأساطير الشعبية كان مخترع المأساة رجلا اسمه ثيسبيس Thespis[٢٢] ، الذى عاش بين ٥٦٠ و ٥٣٥ . وأصله من إيكاريا Icaria (قرب ماراثون) ، وقد قدم

إلى أثينا وزرع بذوره فى أخصب تربة . وساعدت الانتصارات على الفرس وما يتبعها من عظمة قومية على زيادة الحاجة لا إلى شعر غنائى فحسب ، بل إلى شعر مسرحى أيضاً ، يعبر بأقوال فخمة عن عواطف الناس ويثير شعورهم المتوقد. فكانت المأساة نوعاً من الطقوس العامة ، بل أسمى أشكال الطقوس التى احتفلت بها أية أمة .

وقد تطور شعر المأساة المسرحى بشكل منقطع النظير بسبب الوضع الاجتماعى الذى كان مشجعاً له من جهة ؛ وبسبب وجود ثلاثة من العباقرة الممتازين من جهة أخرى . وحل بالتدريج محل الشعر الغنائى، لأنه مكّن من سد الحاجة نفسها بصورة أتم . وأضاف إلى الشعر الغنائى والموسيقى الإلقاء المصحوب بالرقص وتبادل الآراء بصورة تمثيلية . فهو عبارة عن شعر غنائى موضوع بشكل مسرحى متعدد الأشكال ومقرون بالأسرار الدينية ومحول إلى حفلة تمثيلية عامة مستقلة بذاتها . وقد كانت المآسى الأولى بسيطة جداً ، بل وساذجة فى عظمتها ؛ ولكن حوالى نهاية القرن أصبحت تغلب عليها السفسطة والتعقيد ، كما غلبت على الجمهور الذى كان يشاهدها (وأصبحت الصفة الغنائية المحضة ثانوية بالنسبة للمسرحية) ؛ ومع هذا حققت الغرض نفسه . وكان المسرح مدرسة للياقة والجد والتقوى . وقد ساعد الناس العاديين على أن يتقاسموا الانتصارات والانكسارات المشتركة بكرامة ، وأن يفكروا بصورة سامية . وهذا بالطبع ما كان يفعله الشعراء الغنائيون مثل بندار ، إلا أن مؤلفى المسرحيات كان فى إمكانهم أن يفعلوا ذلك بشكل أوقع كما كانوا يتصلون بعدد أكبر من المستمعين .

وقراؤنا يلمون بأهم هذه الروائع . ولكن يحسن بنا أن نذكر الروائيين المبدعين الثلاثة وهم أخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس. والثلاثة يتصلون بمعركة سلاميس (٤٨٠) حيث استيقظت اليونان الحديثة على أفكار الحرية والمجد . وكان أخيلوس وهو أكبرهم فى الخامسة والأربعين من عمره حينذاك واشترك فعلا فى المعركة . وقد اختير سوفوكليس ؛ وكان فتى جميلا فى الخامسة عشرة من

عمره . ليتقدم الجوقة الغنائية المحتفلة بالنصر ، ومشى أمام الموكب عارياً يحمل القيثارة وينشد نشيد الظفر . أما دور يوريبيديس فكان سلبيًّا ولكنه كان حسن الطالع لأنه ولد يوم الفوز فى موقعة سلاميس .

ولد أخيلوس فى اليوسيس وهى أكثر الأماكن قداسة فى أتيكا حوالى عام ٥٢٥ . واشترك فى موقعتى ماراثون وسلاميس الخالدتين . وتذكر الكتابة الموجودة على قبره . الدور الذى لعبه فى المعركة الأولى ، بينما كتبت مأساته الأولى وموضوعها « الفرس » (٤٧٢) إحياء لذكرى المعركة الثانية . وقد بقيت لنا سبع روايات من رواياته (وعددها نحو ثمانين) وتتصف كلها بالصرامة والرزانة . والمأساة التى كتبها أخيلوس فى مستوى كتابات ثيسبيس من حيث البساطة ، وتسودها الصبغة الغنائية . فهو يذكرنا بالشاعر بندار . والفكرة الأساسية فى رواياته هى فكرة الشؤم المستتر فى الظلام والذى يظهر بالتدريج . فالعظمة البشرية تسبب حسد الآلهة . والفخر Hybris يتبعه الضلال . والآلهة تصيب المتكبرين الفخورين بالجنون والعمى (٢٣) . وإظهار الفخر وعقابه هو الحادث الرئيسى ولكنه مخيف حتى إنه يتخذ مظهراً دينيًّا . والميزة الغنائية طبيعية هنا كما لو كانت فى ترنيمة دينية . والرواية تبدو كما لو كانت رؤيا تنكشف تدريجيا أمام أعيننا كطقس دينى أو كتمثيلية تتعلق بالأسرار الدينية . والرؤيا تنكشف عن طريق الجولة الغنائية وتعترضها المحاورة أحياناً . وتساعد هذه المحاورة على شرح ما يحدث . وتعمل فى الوقت نفسه على وقف الإيقاع ووضع حد للترقب والقلق الذى قد يصبح غير محتمل . ومع أن أخيلوس اضطر إلى قضاء معظم حياته فى أثينا فإنه ذهب ثلاث مرات إلى صقلية وكان فى أحد الأوقات ضيف الطاغية هييرون . وقد توفى فى جيلا Gela على ساحل صقلية الجنوبى فى عام ٤٥٦ .

وولد الروائى الثانى سوفوكليس قرب أثينا فى عام ٤٩٥ بعد زميله بجيل كامل . وكان أكثر اجتهاداً من زميله ، ويقال إنه وضع مالا يقل عن ١٣٠ مسرحية . ومهما يكن فإنه يجب ألا ننظر إليه كمعجزة منذ الطفولة ؛ لأن مزاج

اليونان المعتدل الممزوج بالتهكم لم يكن من السهل أن يفتن كما نفتن اليوم بأعمال النبوغ السابق لأوانه . وكان هذا المزاج يدرك أن الرجاء المنتظر من الصغرة قد يكون خادعاً كالبراعم المزدوجة لبعض الأشجار التى لا تعطى ثمراً . وقد بدأ سوفوكليس يكتب وهو صغير السن ، ولكن نجاحه كان متأخراً نسبياً فقد كتب نحو إحدى وثمانين من مسرحياته بعد سن الثالثة والخمسين . ولم تبق من مسرحياته إلا سبع ترجع كلها إلى الفترة الأخيرة فى حياته . وتعود أقدم الروايات الباقية « انتيجون Antigone» إلى عام ٤٤٢ .

وكثيراً ما يقال إن سوفوكليس أصلح المأساة . والأولى أن نقرر أنه زادها تعقيداً . وأكثر التغيرات وضوحاً إدخال ممثل ثالث ، وزيادة عدد الجوقة الغنائية من اثنى عشر رجلا إلى خمسة عشر . واستعمال المناظر المرسومة (*Scenographia*) فى مؤخرة المسرح . وأعمق من ذلك كانت تغيرات الرواية نفسها . فلم يعد المتألمون ضحايا القدر الذى لا يرحم ، وإنما كان يقرر مصيرهم إلى حد ما اعتدالهم *sophrosyne* أو عدمه . وبذا أصبحت الرواية إنسانية وأقرب إلى شعورنا . والسيكولوجيا المسرحية أعقد مما هى عليه عند أخيلوس . ويقل دور الشعر الغنائى ، بينما تدعو الحاجة إلى مجال أفسح للمحاورة .

ويبدو أن سوفوكليس قضى حياته كلها فى أثينا مشاطراً مواطنيه أفراح العصر الذهبى وقلق العصر الحديدى وبؤسه ، وقد شرب كأس هذا القلق والبؤس حتى نهايتها المرة . لأنه عاش حتى ٤٠٦ ، ومع ذلك فقد كانت الذكرى التى تركها ذكرى رجل سعيد .

أما يوريبيديس فإن الفترة الزمنية التى تفصله عن سوفوكليس نصف الفترة التى تفصل هذا الأخير عن أخيلوس ، فى حين أن الفواصل المعنوية بينهما أعظم بكثير . ولد يوريبيديس عام سلاميس (٤٨٠) ، فهو أصغر من سوفوكليس بخمس عشرة سنة . وقد توفيا معاً فى سنة واحدة (٤٠٦) . وهنالك فرق أساسى بينهما ذكره سوفوكليس « الذى قال إنه وصف الناس كما يجب أن يكونوا ، بينما وصفهم يوريبيديس كما هم[٢٤] » . وسبق لنا أن لاحظنا

أن روايات سوفوكليس كانت أكثر إنسانية من روايات أخيلوس ، وروايات يوريبيدس أكثر إنسانية منهما . وأصبحت العواطف البشرية مركز اهتمامه الرئيسى ، ونظرته إلى الناس أكثر واقعية من نظرة الذين تقدموه ، وإن كانت متجهمة كنظرتهم . وبما أن الحوادث المفجعة تزداد قوة وتعقيداً فإن الجوقة الغنائية لم تعد تابعة للمحاورة ولم يعد لها أهمية تمثيلية ، وإنما بقيت على صورة إضافة غنائية احتراماً للتقاليد . وبقيت الآلهة أيضاً ، إلا أنها لم تكن فى وسط المسرح كما كانت فى تمثيليات أخيلوس بل حوله ، والحق أن من نواحى الضعف فى مأساة يوريبيديس أنه كان يجعل الآلهة تتدخل بكثرة (مما يعبر عنه باليونانية *theos apo mechanes* وباللاتينية *deus ex machina*) لحل العقد الصعبة ولإنهاء الرواية .

كان يوريبيديس أكثر سفسطة من أخيلوس وسوفوكليس . ومن الأهمية بمكان أنه كان من أول الأثينيين الذين كان لهم فخر الحصول على مكتبة خاصة . ولم يشترك فى الشؤون العامة وإنما كان طالباً وأديباً وفيلسوفاً إلى حدما ، وقد تأثر بهيراكليتوس Heracleitos وأناكساجوراس Anaxagoras كما أنه كان صديق هيرودوت وسقراط . وكانت معرفته بالأمور وبالناس أوسع من معرفة سوفوكليس ، إلا أنه دفع ثمن هذه المعرفة غالياً . فحياته لم تكن سعيدة ، وكان قلقاً خائب الأمل ، كما أن ولاءه لأثينا كان أقل ، وتدينه حسب العرف القديم كان أضعف . وكان اطلاعه أوسع وخياله أخصب من خيال سوفوكليس ، وكان أكثر حيوية وذكاء ، وفى بعض الأحيان كان يفوقه رقة . ولكنه من جهة أخرى كان أقل حذراً واحتراماً ، وقد يثير استغراب سامعيه بأفكار فلسفية غير مألوفة . وقد كتب روايات أقل مما كتبه سوفوكليس ، بل وأقل من أخيلوس ، إلا أننا نعرف مؤلفاته أكثر مما نعرف مؤلفاتهم ، لأن ربعها (أى ثمانى عشرة رواية من خمس وسبعين) وصلنا ، ولدينا منها ما يفوق ما وصلنا من روايات الاثنين الآخرين معاً . وقد غادر أثينا فى أواخر حياته وذهب إلى مجنيزيا فى تساليا ، ثم إلى مقدونيا حيث رحب به أرخيلاوس Archelaos[٢٥] ملك تلك

obeikandi.com

البلاد ، وتوفى هناك سنة ٤٠٦ .

ومن المفيد جداً أن نقارن بين هؤلاء الثلاثة . فبالرغم من أوجه الخلاف الملموسة بينهم والتى ترجع فى الغالب إلى تفاوت أعمارهم ، فإن فيهم صفات كثيرة مشتركة . منها العظمة والصحة والاعتدال . ويتساءل الإنسان كيف اتفق أن هؤلاء الثلاثة كانوا معاصرين وشكلوا مجموعة فريدة فى تاريخ الأدب . وقد يميل إلى أن يستنتج ، كما فعل جوته[٢٦] . أن عبقريتهم كانت إلى حدما عبقرية عصرهم وبيئتهم . ومن العبث أن نحاول تصنيفهم ونقول إن هذا أو ذاك أعظمهم ، ولندع ذلك للمعلمين والمتحذلقين . فقد كان كل منهم عظيماً فى أسلوبه الخاص وبيئته . فأخيلوس أكبرهم سناً وأكثرهم وقاراً . وقد يذكرنا بأنبياء العبرانيين . وسوفوكليس ، وهو أوسطهم من الناحية الزمنية . يمثل الوسط من ناحية الصفات البشرية والروائية . أما يوريبيديس فهو عاطفى وعصرى أكثر منهما . ويهتم تبعاً لهذا بنفسية الفرد . ومن المؤكد أن سوفوكليس أحسن رمز للاعتدال الأثينى فى العصر الذهبى ، ويمكننا أن نصفه بجانب بندار وفيدياس ، وهو أكثر الثلاثة ولاء لأثينا . وقد حارب أخيلوس فى ماراثون وسلاميس . وكان من حظه أن توفى فى وسط العصر الذهبى . أما سوفوكليس ويوريبيديس فقد شاهدا فى آن واحد عظمة ذلك العصر وما تبعه من انهيار وانحطاط سياسى . وتمكن سوفوكليس من المحافظة على هدوئه . بينما أصبح يوريبيديس أكثر كآبة إن لم يكن أكثر حكمة . وقد بقى سوفوكليس فى وطنه وشغل وظائف عامة حتى فى أيام الاضطراب والانكسار القاتمة . أما الاثنان الآخران فهجرا أمهما أثينا . وانتهت حياتهما فى المنفى . فتوفى أخيلوس فى صقلية ويوريبيديس فى مقدونيا .

الملهاة :

إن قصة المسرحية الأثينية التى رويناها فى ثلاث فقرات — تتعلق بأخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس — يجب إتمامها بفقرة رابعة تتصل بالملهاة . وليس

هذا بحديث جديد . وإنما هي تتمة للحديث السابق . والملهاة تشبه المأساة فى قدمها . فمصدرهما معاً دورة الأعياد والتسليات الشعبية نفسها . والطقوس المتعلقة بالإله ديونيسيوس هى التى ولدتهما كليهما . وكان مصدر الملهاة أعياد الحصاد وقطف العنب الريفية . وأعياد الشكر والمواكب المرحة تكريماً لآلهة الخصب التى يدين لها الناس بلذائذ الحياة . ومع أن المأساة والملهاة نشأتا فى مهد واحد فإن الثانية تطورت بعد الأولى بزمن طويل[٢٧] ذلك فى الغالب لأن الأعياد المحزنة احتاجت إلى شيء من التدبير لتكون على ما يجب من الوقار والفخامة . بينما يمكن أن تتم التسلية المرحة من تلقاء نفسها فى صورة طبيعية . ومهما يكن فإن الممثل الوحيد « للملهاة القديمة » الذى وصلتنا مؤلفاته لا يظهر قبل الربع الأخير من القرن الخامس وهو أرستوفانيس Aristophanes الأثيني (٤٤٨ — ٣٨٦) . وبظهوره نأخذ طريقنا إلى القرن الرابع . إلا أن من المناسب أن نتكلم عنه الآن . وقد كتب معظم رواياته الأربع والأربعين (وصلنا منها إحدى عشرة فقط) فى القرن الخامس .

لقد كان أخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس متعاصرين . وكذلك كان سوفوكليس ويوريبيديس وأرستوفانيس . غير أن الفترة التى انقضت بين الاثنين الأخيرين لا تقل عن تلك التى انقضت بين الأول والثانى[٢٨] . وقد أثر كل منهم فيمن جاء بعده . وإن كان ينبغي أن نذكر أن العكس يحصل أحياناً فيتحدى الشبان من هم أكبر منهم سناً . وهكذا أثر يوريبيديس نوعاً فى سوفوكليس ، وأريستوفانيس فى ايوريبيديس ، وإن وجدت فوارق بين الاثنين الأخيرين لا يمكن إغفالها . وادعى البعض أن يوريبيديس يعد مؤسس الملهاة لتحليله الدقيق لطبائع الناس تحليلا يقرب من الهجو ، ولكن ما أعظم الفرق بين أهداف الرجلين : لقد كانا معاً من رجال الآداب ويستخدمان الأسلوب الأتيكى ، ولكن يوريبيديس بالرغم من سفسطته البالية لا يزال أحد أتباع سوفوكليس .

أما أرستوفانيس فعلى عكس ذلك بدأ شيئاً جديداً للغاية . فهو ناقد شديد

للناس والعادات . لا يعفى أحداً . ولو كان أقوى رجال المدينة وأكثرهم احتراماً . يهاجم المتجرين بالحرب ورجال الدولة والسياسيين والسفسطائيين والشيوعيين ، ويهاجم بوجه خاص متملقى الشعب . والشعب الغبى نفسه demos الذى يسمح بأن يتملقه ويخدعه الفوضويون . وهو لا يهاجم المشتغلين بالشؤون العامة مثل كيمون وبركليس فحسب ، وإنما يهاجم أيضاً الشعراء مثل يوريبيديس والفلاسفة مثل سقراط . وإلى جانب الرجال كان ينتقد المؤسسات نفسها مثل مجلس الشيوخ والجمعية العمومية والمحاكم ومناصب القضاء . وكانت رواياته الانتقادية جريئة غالية ، مثل انتقادات الرسام الكاريكاتورى ، لأنه كان يعلم أن الطريق الوحيد لإظهار انتقاداته هو تبسيطها وتعظيمها ، كما يفعل الكاريكاتورى . وأسلوبه فظ قوى لدرجة الخشونة والبذاءة ، ومع ذلك لم يكن مؤذياً (إلا لضحايا انتقاده) ، لأنه كان يعوض عن خشونته بروح الفكاهة والمجون والنكتة الحاضرة . وكانت الغريزة السياسية طبيعية فيه كما كانت لدى كل أثينى مثقف . ولكنه لم يكن متحيزاً ولا مغرضاً . وإنما كان يوجهه ذوقه السليم وحبه للدعابة . كان يرغب فى أن يضحك الناس معه وأن يحميهم من غباوتهم هم أنفسهم وممن يحاول غشهم . وكان كغيره من النقاد البارزين ملماً بشئون عصره يحس بكل ما يحصل حوله ، كما كان ساخراً ومشككاً إلى حدما . وقد كان أحياناً يمدح الماضى الزاهر لكى يلفت النظر إلى نواحى البؤس فى عصره ، ومن الغريب فى هذا أن يدافع عن أخيلوس ضد سوفوكليس . ولم يكن متديناً ولا خصما للدين ، ولكن اهتمامه به كان أقل من اهتمامه بالعدل والسلم . وتجمع رواياته إلى جانب الواقعية والحقيقية Dichtung und Wahrheit نواحى خيالية لا تكاد تصدق . ومهما يكن من غرابة شخصياته فإن فيها قدراً من الحقيقة يكفى للفت النظر وجذبه وإثبات ما يذهب إليه . وكان شعوره بالطبيعة الإنسانية قوياً وإن كان فجاً . وبعض أشعاره مأخوذة عن أناشيد وأقوال دارجة . أما لغته فمألوفة[٢٩] وطلية وكثيرة الحيوية ، وهى أكثر اللغات تعبيراً بالنسبة لمستمعيه ، أما القارئ الحديث فعليه أن يعرف اليونانية معرفة تامة ،

(وبصورة حية) . إذا أراد أن يقدر نواحي دقته وظرفه .

كان أريستوفانيس أول نموذج للناقد الهزلي في الأدب العالمي . فهو السلف البعيد لمثل إرازموس وموليير وفولتير وأناتول فرانس . وكان ينتقد الديموقراطية . لأنه كان محظوظاً بأن عاش في ظل أول ديموقراطية عرفت في العالم ، ولأنه كان من سوء حظه أن يشاهد فترة ملأى بالفوضى والمآسي حيث أصيبت المثل العليا الديموقراطية بمحنة يصعب تحملها . وقد رأى شرور العصر وفساده . وهاجم بجرأة الزعماء السياسيين والروحيين الذين كان عليهم أن يتحملوا المسئوليات كما حصلوا على المفاخر والأمجاد . وكانت الانتقادات التي وجهها مفيدة وسليمة ، بالرغم من عنفها ، وأحسنت البرهنة على صلاحية الديموقراطية الأثينية وأصالتها . فالديموقراطية لا يمكن أن توجد بدون توجيه النقد للذين يعيشون في ظلها ، والنقد اللاذع أوفق من انعدام النقد بتاتاً .

ويمكننا أن نفهم قيمة عمل أريستوفانيس بالنسبة لعصره إذا سألنا أنفسنا بضعة أسئلة : هل يمكن تصور وقوع مثل هذا النقد في إسبرطة أو فارس المعاصرتين ؟ أو إذا اقتربنا من عصرنا الحاضر : هل كان يمكن إخراج رواية في برلين عام ١٩٤١ مثلا تسخر من اعتقاد هتلر في رسالته الإلهية وتظهر ذلك الزعيم الملهم يقود شعبه نحو الهاوية ؟ (وهل كان يمكن إعلان فوز مثل تلك الرواية !) وماذا لو أخرجت رواية في وشنطن في السنة نفسها تدعو إلى السلم وتتهم رئيس الولايات المتحدة ووزراءه بالمتاجرة بالحرب ؟ وهل كان من الممكن إخراج رواية في موسكو عام ١٩٥١ تقلل من شأن ستالين ؟

إن هذه الأمور بعينها كانت ممكنة في وسط الهموم والقلق أثناء حرب البيلوبونيز . ألا فما أعظم أثينا وما أعظم أريستوفانيس! فهو يستحق بفضل إخلاصه الشعري وجرأته تلك الكتابة المنقوشة على قبره إكراماً له (والتي قيل إن أفلاطون كتبها) ، ونصها : « حاولت إلهات الجمال إيجاد معبد يبقى على الأيام . فلم تجد أحسن من قلب أريستوفانيس[٣٠] » .

القرن الخامس هو نفسه مأساة :

فى هذه الكلمات الموجزة عن الثمار الفنية والأدبية للعصر الذهبي التى لم يعادلها شيء فى أى مكان وفى أى عصر آخر — لا بد أن يكون القارئ قد لاحظ إشارات إلى الحوادث الرهيبة التى أحلت النكبات وخيبة الأمل موضع الحماسة والأمل وكادت تهدم جلال أثينا ومجدها . ويجدر بنا أن نضيف كلمات أخرى إلى ذلك دون الدخول فى التفاصيل التى ليس فيها فى حد ذاتها كبير فائدة . ظلت بلاد اليونان متحدة اتحاداً بديعاً تحت زعامة أثينا ، وذلك لفترة من الزمن — وتبدو هذه الفترة قصيرة ونحن ننظر إليها الآن من بعيد . غير أن الشعب اليونانى لسوء الحظ قوم متحاسدون . كان ذلك شأنهم ، وقد لازمهم ، ولا يزال موطن ضعفهم الرئيسى إلى اليوم . ووجدت المدن التى هى أقدم من أثينا صعوبة فى أن تصبح تابعة لها ، وكان ذلك غير محتمل تقريباً لواحدة منها خاصة ، وهى إسبرطة المتكبرة . وزاد فى حسدها اختلاف وجهات النظر التى لم يكن فى الإمكان تسويتها بطريقة من الطرق . فأثينا ديموقراطية وطابع إسبرطة أرستقراطى واستبدادى ، والفرق بين المدينتين فى القرن الخامس عظيم ، كالفرق بين لندن وبرلين عام ١٩٤٠ ، وفى كلتا الحالين لم يكن من حل سوى الحرب . وقد وقعت بكل ما فيها من ويلات . ولسنا فى حاجة لوصف الحرب البيلوبونيزية ، ولا الحربين اللتين دمرتا العالم اليونانى بين ٤٣١ و ٤٢١ ، ولا ما حدث بعد هدنة قصيرة بين ٤١٤ و ٤٠٤ ، وانتهى بفوز تام لإسبرطة وأضحت هذه الحروب الأهلية حروباً عالمية ، ويمكن مقارنتها ، من حيث اتساعها النسبي وشدتها والنتائج التى ولدتها ، بالحروب الفارسية التى خرجت منها بلاد اليونان الموحدة ملأى بالأمل فى مطلع القرن الخامس . ويمكن مقارنتها أيضاً بالحربين العالميتين اللتين اسودت بهما أيامنا هذه .

وأضيفت إلى ويلات هذه الحرب آلام الطاعون ومخاوفه التى يعز علينا وصفها . ودامت خمس سنوات طويلة (٤٣٠ — ٤٢٥) . وكاد يشعر الأثينيون

أن نهاية العالم اقتربت . ومن المحقق أن عالمهم المرح انتهى إلى غير رجعة . إلا أن حياتهم الثقافية لم تتوقف توقفاً تاماً خلال تلك السنين الرهيبة . وبقيت بوجه خاص مآسي سوفوكليس ويوربيديس وملاهي أريستوفانيس المتجهمة تمثل . وكانت الروايات الجديدة تدخل المسابقة كل عام كالمعتاد . وتكلل أحسنها بالنجاح .

وكان عام ٤٠٤ عام الخضوع والذل . فاضطرت أثينا إلى الاستسلام . وهدمت أسوار بيرايوس (ميناء أثينا ومركز صناعتها البحرية) والأسوار الطويلة بين أثينا والميناء . وسقطت الحكومة الديموقراطية . وانتقل سلطانها للطغاة الثلاثين . ولا داعي لوصف هذه الأعمال الفظيعة التي كادت تمحو معالم هذه المدينة النبيلة إلى الأبد . ومع ذلك عادت أثينا فازدهرت كما سنرى . واتخذت مظهراً جديداً من المجد والزعامة الروحية . وظلت مدينة عظيمة . بل إحدى المدن العظمى في العالم القديم . وانتعشت اليونان كلها . ولكنها لم تستعد وحدتها ولا سلمها . ولا الفورة البريئة التي عرفها عصرها الذهبي الأول .

ومع الزمن استولت على العالم القديم روح أتيكية جديدة . وهي روح أفلاطون وأرسطو التي لا تزال حية إلى اليوم . وهذه الروح ذات صفة دولية أكثر من تلك التي ظهرت في القرن الخامس . وكانت أكثر شعوراً بنفسها ووجودها . إلا أنها كانت أقل صفاء . والفرق العظيم بين العصر الذهبي الأول والعصر الذهبي الثاني يتضح بسرعة في ذلك التباين بين عمل فيدياس من جهة وعمل أسكوباس وبراكسيتليس من جهة أخرى . على أنه ينبغي ألا نستبق الأمور .

وإذا عدنا إلى القرن الخامس ونظرنا إليه من ذروة عصرنا الحاضر . خلال خمسة وعشرين قرناً . فإننا نتحقق من أنه كان كإحدى مآسي أخيلوس يبدأ بعظمة وفخر لا يلبث أن يغضب الآلهة ويثير حسدها . ثم ينتهي بانتقامها وبطشها بالأثينيين ودمارهم .

خطر مقارنة الماضى بالحاضر

ينبغى أن يختم هذا الفصل بشىء من التنبيه . فقد تكلمنا عن مجد أثينا . ولا يصح أن يغيب عن بالنا أن هذا هو الجانب السعيد الزاهى ، فى حين أن الجانب الآخر ليس بمثل هذه البهجة .

وآثار الماضى فى نفوسنا ذات جانب واحد بالضرورة، فنحن نذكر العظمة والجمال فقط ، والأمور التى تستحق الذكر ، أو بالأحرى تلك التى لا تحتاج إلى تذكر ؛ لأنها لا تزال قائمة . وننسى الأمور السيئة البشعة والدنيئة الزائلة الفانية ، لأننا لا نرى ما يدعو لأن نثقل ذاكرتنا بها .

ولم يكن فى الإمكان أن تكون المعيشة فى أثينا بهيجة أثناء الحروب البيلوبونيزية ، وحتى قبل اندلاعها فإن فترات السلم التام كانت قصيرة وقليلة . وهذا ما يجب أن نذكره عندما تقارن الماضى بالحاضر (كما يمكننا وكما يجب أن نفعل) . وقد نمدح أحياناً حوادث الماضى فى حين أننا لا ننصف معاصرينا، لأن فظائع عصرنا ونواحى التقصير فيه جلية واضحة بالنسبة لنا وهى تؤذينا بينما فظائع الماضى تنسى أو تفقد مرارتها .

وهل علينا أن نحاول استعادة ذكرى الجانب الكئيب المحزن من القرن الخامس ؟ إننا حتما لا نفعل ذلك بالتفصيل ، وما فائدة هذا العمل ؟ ولماذا نسمح لأنفسنا أن نتلهى بشرور انقضى عهدها منذ أمد طويل ؟ إن شرور اليوم تكفينا . ومن المفيد أن نعلم أن الناس رجالا ونساء أصابتهم جميع أنواع البؤس فى كل مكان وزمان مع فترات قصيرة فقط من السلم والسعادة . وإدراك المرء أن قسطاً من الشر والألم كان دائماً موجوداً حتى فى أمجد عصور الماضى من شأنه أن يساعده على تحمل شرور اليوم فى رباطة جأش أكثر .

ويدعونا الواجب إلى أن ندرك شرور عصرنا قدر الإمكان ، لكى نتمكن من معالجتها أو إزالتها ، ولا حاجة إلى مشاهدة شرور الماضى أيضاً لأن شفاءها لم يعد ممكنا والزمن أزالها فعلا . ومع ذلك يجب أن نحفظ لها ذكرى بصورة

عامة ، وبهذه الذكرى ينبغي إنصافاً أن يخف مديحنا للماضى .

وليتضح لدينا دائماً أن ما يروقنا من الماضى (ولم يكن فى وسعنا أن يروقنا أكثر من اللازم) ، ليس هو الماضى كله بأى وجه من الوجوه ، وإنما جزء صغير منه ، بل وأحسن أجزائه . ولا يصح أن ننظر إليه على أنه مثل أعلى ، كما فعل أرنست رينان فى « صلاته على الأكروبول » ، وإنما ننظر إليه ككل نعجب فيه فقط بالأمور التى كانت جيدة جداً بحيث لا تفنى . ونحن لا نحب الماضى ، اللهم إلا قسماً منه لم يكن ماضياً ، وسوف لا يكون أبداً .

وواضح أن الأثينيين لم يكونوا جميعاً فى مستوى البارثينون الروحى ، وأحسنهم فقط هم الذين استطاعوا أن يتذوقوا سوفوكليس وفيدياس . ولم تكن هذه الأقلية إلا بمثابة الخميرة ، وبفضل تشجيعها وعبقريتها تمكن رجال عظام مثل فيدياس وسوفوكليس أن ينتجوا روائعهم الممتازة . وقد بقى هؤلاء العظماء . بينما ذهب الآخرون ، وهم وحدهم يرمزون إلى قيم العصر الذهبى الخالدة .

تعليقات

(١) يمكن القول بوجه التقريب أن الشعب اليونانى الذى تبحث عنه فى هذا المجلد هو مزيج من سكان البحر المتوسط (من كريتيين وأخيين وغيرهم) وغزاة مختلفين وخاصة الدوريين الذين هبطوا من الشمال. وهذه مسألة كثيرة التعقيد وقد يكون حلها متعذراً. وهنالك موجز عنها فى كتاب A.J.B. Wace وعنوانه Companion to Greek Studies (كمبردج الطبعة الثالثة ١٩١٦) ص ٢٣ — ٣٤ .

(٢) لن نتمكن من الكتابة عن الحضارة الأخمينية فى هذا الكتاب ؛ وذلك لعدم وجود متسع لها ولضرورة وحدة الموضوع . ونكتفى بتذكير القارئ أن أول ملوك السلالة الأخمينية كان قورش (حكم ٥٥٩ — ٥٢٩ ق . م .) وأن آخرهم كان دارايوس الثالث الذى كسره الاسكندر الأكبر فى ٣٣١ ق . م . وقد دام حكم السلالة ٢٢٨ سنة . ويجدر التكلم عما حققته الحضارة الأخمينية فى تاريخ الفن أو حتى فى تاريخ التربية عند الأقدمين (بالرغم من أن التربية الفارسية —كما أوضحها كزينوفون فى كتاب تربية قورش Cyrupaideia — كانت وهمية وخيالية إلى حد بعيد) ، أما مؤرخ العلوم فيمكنه أن يهمل ذكرها بدون حرج وخاصة بالنسبة لطبيعة هذا الكتاب وموضوعاته . راجع الكتاب الذى وضعه المرحوم البرت أولمستد A. Olmstead (١٨٨٠ — ١٩٤٥) وهو تاريخ الامبراطورية الفارسية History of the Persian Empire (٥٩٦ صفحة مع الرسوم مطبعة جامعة شيكاجو ١٩٤٨) .

(٣) كانت مصر تحت حكم الفرس بين ٥٢٥ و ٣٣٢ ق . م .

(٤) انظر مقال جورج سارتون : « وحدة عالم البحر المتوسط وتنوعه The unity and diversity of the Mediterranean world فى مجلة Osiris عدد ٢ ، ص ٤٠٦ — ٤٦٣ ، عام ١٩٣٦ وخاصة ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

(٥) ذهب أحد جنود اليونان ركضاً إلى أثينا ليذيع الأنباء السارة . ولإحياء ذكرى أعمال البطولة هذه (ومنها عمل هذا اليونانى) وقام سباق ماراثون الطويل المدى فى عدة بلاد ، كما يحدث فى بوسطن مثلا كل سنة ، ومسافته ٢٦ ميلا و ٣٨٥ ياردة ، على أساس أنها المسافة بين ماراثون وأثينا . ولا أدرى على أى أساس حسبت .

(٦) انظر المقدمة Introduction ج ٣ ، ص ١١٨٨ .

(٧) هنالك ملاحظات غريبة من اللهجة الأثينية فى كتاب « دستور أثينا » ، الجزء الثانى والثامن ، وهو كتاب جزيل الفائدة ينسب إلى كزينوفون ، ولكنه أقدم بقليل (نحو ٤١٣ — ٤٢٤) . وقد قال مؤلف الكتاب المجهول « بما أن الفرصة كانت متاحة لهم للاصغاء إلى لهجات متعددة فإنهم استعاروا من كل منها . وبينما استعمل كل واحد من الشعوب اليونانية الأخرى

لغته الخاصة واتبع أسلوبه فى المعيشة والزى فإن الأثينيين استعملوا لغة مزيجة استمدوا عناصرها من اليونان الآخرين وغيرهم »، انظر الطبعة اليونانية – الإنجليزية ، لهذا النص مع شروح هارتفج فريش « دستور أثينا » (طبع كوبنهاجن ١٩٤٢) .

(٨) أطلق اسم ميثريداتيس على عدد من الولاة أو الملوك فى پونتوس Pontos (فى شمال شرق آسية الصغرى جنوبى الطرف الشرقى للبحر الأسود) وقد اشتق هذا الاسم من اسم إله الشمس عند الإيرانيين، وهو مثْرا Mithras . والملك الذى نتكلم عنه هو ميثريداتيس السابع أو يوپاتور Eupator أو العظيم ، وقد دام حكمه من حوالى ١٢٠ إلى ٦٣ ، وكان هانيبال أشد أعداء الرومان خطراً واتصف بالقسوة والوحشية وإن كان مولعاً بالآداب والفنون .

(٩) اكتشفت البعثة الأثرية الفرنسية سرتين من رخام فى دلفى . (انظر مقال "Omphalos" لكاتبه و . ج . وودهوس Woodhouse فى دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion and Ethics ج ٩ (١٩١٧) ص ٤٩٣) . وإن فكرة وجود سرة الأرض أو وسطها فى مدينة معينة أو بلد معين هى نوع من الإقليمية والاعتداد بالذات ، وليست بأى شكل من الأشكال مقتصرة على اليونان . فقد كان يعتقد سكان بوسطن مثلا أن مدينتهم هى « مركز العالم » والفكرتان متشابهتان وإن كانت الاستعارة مختلفة ، وإننى أفضل فكره « السرة » ، وهى عضوية ، على فكرة المركز hub ، وهى ميكانيكية .

(١٠) كانت البيثيا Pythia (والمقدسة hiera) كاهنة أبولون البيثى ،وكانت هؤلاء الكاهنات فى الأغلب نساء يتمتعن بقوى فائقة فى الوساطة .

(١١) قد تبدو هذه الأمور كلها مخالفة للعقل . على أننا يجب أن نتذكر أن حوادث التاريخ القديم (ومنها الحوادث السياسية والعسكرية مثلا) كان يسيطر عليها لحد كبير الإيمان بالفأل والتكهنات . وتراجم بلوتارك Plutarch ملأى بالإشارات إلى التكهن وعلم الغيب ، وقد زادت هذه الإشارات فى شهرة مؤلفه فى العصور السابقة (حتى القرن الثامن عشر) ، وهى الآن من الأسباب الرئيسية لزوال هذه الشهرة على الأغلب . ومهما يكن من غباوة التكهن فإن الناس كانوا يتأثرون به ما داموا يعتقدون صدقه . فالاعتقاد خاطىء والتأثير واقعى . انظر بشأن دلفى وسلطة كاهناتها (Pythiae) التوجيهية كتاب بوشيه لوكلير . تاريخ الكهانة فى العالم القديم Bouché-Leclerc, Histoire de la divination dans l'antiquité (فى أربعة مجلدات . باريس ١٨٧٩–١٨٨٢) وخاصة المجلد ٢ ، ص ٣٩–٢٠٧ ؛ وكتاب هوبرت وليم بارك Parke : تاريخ تكهنات دلفى History of the Delphic oracle (عدد صفحاته ٤٦٥ مع الرسوم طبع مكتبة بلاكول Blackwell فى اكسفورد ١٩٣٩)، ومجلة ايزس Isis ص ٣٥ ، ٣٥٠ عام ١٩٤٤ . وتنبؤات دلفى كانت عموماً غامضة وسلبية (سوف لا تفعل كذا . . .) ومقيدة ومحافظة . وقد يود رجال السياسة اليوم لو كان فى وسعهم أن يبرروا أعمالهم أو عدم إتيانهم لعمل بالاستناد إلى أمر إلهى ! فإن ذلك كان يعطيهم أعذاراً لا يمكن التغلب عليها .

opelkandil.com

(١٢) تشهد بذلك بعض الظواهر الباقية في لغتنا : فكلمة panegyric التي تعني أي خطاب أو كلام فيه مديح مشتقة من Panegyris ومعناها جمعية وطنية عموماً من نوع الأعياد الدينية كالتي كان يجتمع الناس فيها في دلفي وديلوس . وخطب العيد كانت تسمى panegyricoi . وبما أن هذه الخطب كان يزداد فيها المديح للزعماء أكثر فأكثر فإن خطبة تمتدح الأشخاص أصبحت تدعى Panegyricus ، ومنها خطبة الكاتب بليني الأصغر الذي عاش ٦١ — ١١٤ وفيها إغراق في مدح الإمبراطور تراجان (حكم ٨٩ — ١١٧).

(١٣) كان هيرون طاغية سيراكيوز في صقلية من عام ٤٧٨ حتى وفاته في ٤٦٧ . وكان من المستنيرين الذين يعطفون على الأدب ، وقد رحب في بلاطه بالشعراء ، أخيلوس Aischylos وسيمونيدس وبندار واخيليديس وغيرهم .

(١٤) نقل هذا الشعر إلى الإنجليزية جون سترلنج Sterling ، راجع لأجل النص اليوناني ف . ج . شنايدون Schneidewin, Simonidis Cwei Crmenum reliquiue (Brunswick,1835 (طبع برنزويك ١٨٣٥) ص ١٠ .

(١٥) انظر كتاب فردريك . كينيون Kenyon « أشعار باخيليديس من ملف بردي في المتحف البريطاني» The poems of Bacchylides froma papyrus in the British Museum (٣٠٠ ص . لندن ١٨٩٧) . نشر المتحف البريطاني في تلك السنة صورة تامة من ذلك الملف ، وظهرت منذ ذلك الحين طبعات وترجمات مختلفة لباخيليديس في بلاد عديدة ؛ وعلى هذا فعام ١٨٩٧ هو تاريخ بعث باخيليديس .

(١٦) ويشمل نشاطه تقريباً النصف الأول من القرن الخامس تماماً وأقدم شعر باق له يرجع إلى عام ٥٠٢ وآخر أشعاره من عام ٤٥٢ .

(١٧) راجع كتاب كويتليان Institutio Oratoria (الجزء العاشر ، الفصل الأول ، الفقرة ٦١) في مكتبة Loeb للمؤلفين الكلاسيكيين المجلد الرابع ص ٣٥ . أما « الشعراء الغنائيون التسعة » فإنهم بحسب الترتيب التاريخي : آرخيلوخوس من باروس Archilochos of Paros (٧٢٠ — ٦٧٦) وآلكمان Alcaman الإسبرطي الذي ولد في سارديس (القرن السابع) والشاعرة سافو Sappho من لسبوس (ازدهرت عام ٦٠٠) ، وايبيكوس من ريجيوم Ibycos of Rhegium (ازدهر في ساموس ٥٤٠) ، وأنكريون من تيوس Anacreon of Teos (٥٦٣ —٤٧٨) ، وبندار ، وباخيليديس ، وفيليتاس من كوس Philetas of Cos (توفي نحو ٢٨٠) وكاليماخوس من برقه Callimachos of Cyrene (ازدهر ، ٢٦٠—٢٤٠) . ويجب ملاحظة توزع هؤلاء الشعراء في الزمان بين القرنين الثامن والثالث ، وفي المكان فكان واحد منهم فقط — بندار — وهو أعظمهم من صميم اليونان ، بينما كان أربعة آخرون من جزر بحر إيجة وهم آرخيلوخوس وسافو وباخيليديس وفيليتاس ، واثنان من آسية وهما الكمان وآنكريون ، والثامن من بلاد اليونان العظمى وهو ايبيكوس ، والأخير من برقة وهو كاليماخوس .

(١٨) أغنية دلفي ، الجزء الثامن . ترجمها إلى الإنكليزية السير جون ساندس Sandys

(١٨٤٤ – ١٩٢٢) فى طبعة لوب Loeb لأغانى بندار (١٩١٩) ص ٢٦٩ .

(١٩) إن هذا الأمر أقل غرابة مما يبدو لأول وهلة . فالشعر مختلف فى جوهره عن اللغة اليومية ولذلك فإنه ليس من المستغرب أن ينتهى الأمر بالشعراء إلى استعمال مفردات وقواعد تختص بهم ، قارن ذلك باستعمال اللهجة الغاليسية Galician التى هى أقرب إلى البرتغاليةمنها إلى الكاستية لغة ملك كاستيليا الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (راجع المقدمة Introduction ج ٣ ص ٣٤٣ – ٣٤٤) .

(٢٠) تصور رينان هذه القطعة عندما زار أثينا فى ١٨٦٥ ، ثم كتبها فيما بعد ولم ينشرها إلا فى مايو ١٨٧٦ (فى مجلة (Revue des Deux Mondes) وبعد ذلك أدخلها فى كتابه Souvenirs d'enfance et de jeunesse (١٨٨٣) . وكلمة بارثينون – Parthenon معناها غرفة العذراء ، وهو معبد أثينا بارثينوس Parthenos الإلهة العذراء للحكمة .

(٢١) تفيد كلمة lesche مكاناً يجتمع فيه الناس (lego) لأجل التحدث ، وكانت عموماً أشبه بالرواق (stoa)

(٢٢) إننا لا نعلم الشىء الكثير عن ثيسبيس ولكن اسمه محفوظ فى اللغة الإنكليزية فى عبارة Thespian art « الفن الثسبى » أو a Thespian « ثسبى » للدلالة بصورة هازلة عن الممثل . ويقال إنه أوجد ممثلا (يعرف باسم hypocrites ومن هذه الكلمة أتت لفظة hypocrite أى مراء بمعنى الإنسان الذى يلعب دوراً) ليجيب الجوقة الغنائية . فاختراع المأساة إذن يقوم على إضافة العمل الفردى إلى الجوقة الغنائية .

(٢٣) تلك كانت فكرة عادية فى الشعر اليونانى وترجع بأصلها إلى هوميروس ، وقد أبانها أصحاب المأساة الأولون كلهم كما فى مأساة أنتيجون Antigone التى كتبها سوفوكليس (الجزء الأول مقطع ٦٢٠). ومعظم الناس يذكرونها فى شكلها اللاتينى (فى ترجمة متأخرة لبيت منسوب لاوريبيديس):

Quem (orquos) vult perdere Iupiter dementat prius

(٢٤) أرسطو : كتاب الشعر Poetica الفصل ٢٥ .

(٢٥) كان أرخيلاوس ملك مقدونيا من ٤١٣ حتى ٣٣٩ يعطف على الفنون والآداب وقد زخرف قصره زويكسيس Zeuxis وهو من مشاهير الرسامين فى بلاد اليونان قديماً . وتاريخ مقدونيا تاريخ معقد جداً ، والاسكندر الأكبر ملكها الثانى عشر (ومن هؤلاء الملوك أربعة مغتصبون) بعد أرخيلاوس .

(٢٦) فى حديثه مع أكرمان Eckermann فى ٣ مايو ١٨٢٧ .

(٢٧) هذا إذا استثنينا الرواية الهزلية التى ليست قصة مضحكة وإنما هى مأساة هزلية paizusa tragodia. وكان الشعراء المتنافسون فى أعياد ديونيسيوس يضطرون لتقديم أربع روايات (tetralogia) منها ثلاث مآس (trilogia) ورواية هزلية satyricon ورواية الـ Cyclops ليوريبيديس المبنية على ما جاء فى الأوديسية ، (الكتاب التاسع) رواية هزلية ، وهى الوحيدة التى وصلتنا من هذا الروائى .

(٢٨) والفروق بين تواريخ ولادتهم هى ٣٠ و ١٥ و ٣٢ سنة .

(٢٩) وأحياناً كانت مألوفة أكثر من اللزوم بالنسبة لذوقنا . فقد كان ينغمس فى توريات سخيفة لا تضحكنا اليوم كما كانت تضحك معاصريه ، حتى ولو جعلتها التفاسير فى الهوامش واضحة .

(٣٠) كانت إلهات الجمال (المعروفة فى اليونانية باسم Charite وباللاتينية بـ Gratiae وبالانجليزية باسم The Graces) بنات زيوس الثلاث وهن المرح Euphrosyne والبهاء Aglaia والازدهار Thalia ومهمتهن زيادة مرات الحياة الدنيا . وليتهن بقين معنا لأن حاجتنا إلى عونهن ماسة .

(٣١) إن مقارنة القرن الخامس بمأساة مقارنة ملائمة ، خصوصاً وإسبرطة ما كانت لتكسب الحرب لولا مساعدة فارس المالية . وبسبب خيانة إسبرطة هنا تمكنت فارس ، التى أصيبت بانكسار تام سنة ٤٧٩ ، أن تملى شروط الصلح سنة ٤٠٤ . وهل يمكن تصور انقلاب مفجع أكثر من هذا ؟ وإذا درسنا الحوادث السياسية السابقة بشىء من التفصيل ، وجدنا مآسى صغيرة كثيرة ساعدت على إيجاد مأساة الانكسار الأثينى الرئيسية ، وكان من أمر اثنين من منقذى اليونان — وهما ثيمستوكليس الأثينى وبوزانياس الإسبرطى — أنهما أصبحا فى نهاية حياتيهما خائنين منبوذين .

openkandl.com